# عنوان المحاضرة: تأريخ القرآن ونظرة المستشرقين له

## مقدمة:

إنّ المراد من (تأريخ القرآن) هو تعيين تاريخ نزول السور القرآنية، ولمّا كان طابع مثل هذا البحث تاريخيٌّ فإنَّ المنهج والأسلوب العلمي الذي يلزم اتّباعه هو الاستناد إلى الأدلّة التاريخية، والروايات المعتَبرة، وكذلك مضامين الآيات والسور القرآنية.

وبهذا فإنّ الباحثين في علوم القرآن من المسلمين يستندون في هذا المجال غالباً إلى رواية (ابن عباس) الحاوية لترتيب نزول السور القرآنية. وأمّا المستشرقون فقد اعتمدوا في الغالب على لحن وأسلوب الآيات والسور ملاكاً لمعرفة ذلك، واستندوا أحياناً إلى الروايات الضعيفة ومن ثَمَّ فقد توصّلوا من خلال ذلك إلى نتائج متناقضة لا تمتلك أساساً من الصحّة، فمضافاً إلى ما يلحظ من اختلاف نتائج دراساتهم في ترتيب السور مع الترتيب الروائيّ المشهور، نرى التناقض والاختلاف القائم فيما بينهم أيضاً، وهذه الملاحظة كافيةٌ بنفسها للإشارة إلى أنّ المعايير والمباني المعتمدة لدى كلّ واحد منهم ليست سوى معايير ذوقية ومجرّد تخيلات وهمية.

## نزول القرآن وترتيبه عند المستشرقين:

إنّ القرآن الكريم قد نزل بشكل تدريجي، وطبقاً للمقتضَيات والظروف والحاجات، كان من الضرورة بمكان التعرّض لتأريخ نزول الآيات القرآنية، ولذا فإنَّ المنهج التاريخي هو أفضل منهج يمكن اعتماده في سبيل تقديم التفسير الصحيح والواضح للقرآن الكريم.
لقد اهتمّ المستشرقون منذ أواسط القرن الثالث عشر ـ أمثال: فايل، نولدكه، بلاشير، رودول، موير، هرشفلد، ريتشارد بل وجريم بالأبحاث والدّراسات المتعلّقة بتأريخ نزول القرآن، ومن ثمّ قاموا بنقدها وتحليلها وسوف تَظهر الجوانب المختلفة والمتعدّدة لهذا الموضوع لذوي الشأن والاهتمام القرآني.

## أولا: دارسة غوستاف فايل.

يعدّ نظام غوستاف فايل ذي المراحل الأربعة في تأريخ نزول الآيات والسور القرآنية والذي ذكره في كتابه «المقدّمة التاريخية النقدية للقرآن الكريم» من أكثر النُّظم المتلقّاه بالقبول في هذا المجال، ومن ثمَّ أصبح مورداً للاهتمام والمتابعة من علماء آخرين أمثال (نولدكه)، (بلاشير) و(رودول).

قدّم غوستاف تاريخ السور وفق معايير ثلاثة:

1. الاستناد إلى الوقائع التاريخية المعلومة من مصادر تاريخية متعدّدة أي إنّه قد أُشير إلى بعض الوقائع التاريخية في القرآن إلا أنّ شرحها وتفسيرها لابدّ من أن يبحث في المصادر التاريخية.
2. مضامين الوحي أو محتوي الآيات التي تُشير إلى الوظائف المتعدّدة للنبي.
3. سبك نظام الوحي وسياقه بلحاظ أسلوب اللحن والنغَم وكيفية نثر الكلمات وسجعها.

كذلك قسّم (غوستاف) السور القرآنية إلى أربعة طوائف: ثلاثة منها مكية والرابعة مدنية، ومن ثمّ رتّب السور المكية بناء على هذه المقاطع والمراحل التاريخية:

أ.منذ بداية البعثة حتّى الهجرة إلى الحبشة الموافقة لسنة 615 م.

ب. من الهجرة إلى الحبشة (615م) إلى حين رجوع النبي 9 من الطائف سنة620م.

ج. ومن التاريخ الأخير إلى هجرة النبي 9 إلى المدينة الموافق 622م.

وبناءً على هذه المراحل التاريخية فقد حدّد (فايل) خصائص معينة للسور النازلة في كلّ مقطع منها:

**خصائص الطبقة الأولى:**

-ابتداء اغلب السور بنوع من القسم.

-إنّ أغلب الآيات قصيرة ومؤثرة.

-إنّ آياتها موزونة ولها سجعها.

-إنّ لسان هذه السور مشبعٌ بالتصاوير والتمثيل الشاعري والجاذبية الشعرية.

إنّ هذه الخصائص التي أشار إليها (فايل) بالنسبة للطبقة الأولى من السور المكية يعتمد على مبنى سبك الآيات وظاهرها، ومثل هذا الاستظهار ليس جامعاً ولا مانعاً بحيث يمكن على اساسه من تقسيم كلّ السور وتمييزها عن بعضها البعض؛ وبعبارة أخرى، فإنَّ الكثير من التغييرات

طرأت بلحاظ الأسلوب في طول مدّة نزول الوحي، إلا أنّه لا يوجد أي دليل يدلُّ على أنَّ السور ذات الأسلوب والنهج الواحد لابدّ من تعلّقها بمرحلة زمانية معينة بخصوصها، ومن ثمّ عدم إمكان وجودها في غيرها من المراحل الزمنية.

**خصائص الطبقة الثانية:**

. طول السور وقربها من النثر.

. لا زلنا نرى فيها الخيال والجاذبية الشعرية.

. أُشير فيها إلى الصفات الالهية كالرحمة، وذُكرت فيها أوصاف الجنّة والنار، وكيفية العقاب والعذاب، وكذلك ذُكرت فيها آيات الله في الطبيعة.

**خصائص الطبقة الثالثة:**

. طول سورها بالمقايسة مع سور الطبقة الثانية، وكونها أكثر منها قرباً إلى النثر.

. أنزلت بنحو الخطابة والوعظ وتفتقد للجانب العاطفي.

. تعرَّضت لبيان قصص الأنبياء، وبتفصيل أكبر للعقاب الأخروي.

**خصائص الطبقة الرابعة:**

. بيان سير الأحداث بعد الهجرة.

. الآيات والسور أطول من سابقاتها.

. يتبين حجم القوّة والقيادة السياسية والاجتماعية الواسعة للنبي .

**والخلاصة:** فلا يصح الاستناد إلى أسلوب الآيات والسور وظواهرها من أجل الفصل بين السور وتعيين تأريخ نزولها، بلا حاجة إلى مزيد من التوضيح والتحليل.
وبعبارة ثانية: إنَّ مثل هذه الخصائص يمكن أن تكون ذات ناحية تغليبية وأكثرية إلا أنّها لا تمتاز بالضرورة بوصف الجامعية والمانعية.

**ثانيا: دراسة نولدكه .**

قام (تيودور نولدكه) بتقسيم سور القرآن . طبقاً للمعايير الثلاثة التي ذكرها غوستاف فايل . إلى أربع طبقات ثلاثة منها مكية والرابعة مدنية، وقد عرَض نتائج دراساته في كتابه (تاريخ

القرآن) المنشور سنة 1860 ميلادية، وقد قام نولدكه بتقديم أسلوب جديد في ترتيب وتأريخ السور القرآنية متجاهلاً الروايات الصحيحة والأخبار الواردة في المقام والمنقولة عن صحابة النبيّ والشاهدة بنفسها على نزول الوحي الإلهيّ والواضحة الدلالة على زمان نزوله ومكانه. وقد سمع التّابعون ذلك تفصيلاً من صحابة النبي ونقلوها كذلك إلى تابعيهم وهكذا.

والجدير ذكره هنا، أنّه لا منافاة في الاستناد إلى الروايات الصحيحة وإعمال النظر الاجتهادي والتتّبع والتحقيق الشخصي في موردها. وخاصّة في الموارد التي لا وجود فيها لروايات صريحة أو معتبرة، إذ إنّه حينئذ يمكن إبداء الرأي استناداً إلى القرائن والأمارات الموجودة والفحص والتتبّع في مفاد الآيات والتمسّك بتاريخ النبيّ وسيرته.
ولكن (نولدكه) ذهب إلى القول بضرورة ترتيب نزول الآيات والسور القرآنية خلافاً للطريقة الإسلامية المعتمدَة، وقد اختار لنفسه أسلوباً جديداً فرض تأثيره على الكثير من المستشرقين والذين تابعوه في ذلك رغم أنّهم لم يصلوا إلى نتائج مشتركة أحياناً.

وشيئاً فشيئاً شغل هذا الأسلوب في تأريخ القرآن أذهان المستشرقين عامّة ممّا ولّد كثيراً من الاشتباهات العظيمة، وعرّض ساحة الدّراسات القرآنية لمزيد من المخاطر.

ذكر (نولدكه) خصائص السور في ضمن طبقات مختلف، نذكر منها: خصائص السور النازلة أوائل الوحي في مكة:

1- إنَّ السور المرتبطة بالمرحلة الأولى من الوحي المكيّ تُشير في أغلبها إلى شدّة اضطراب النبي وتشنّجه، وقد كان هذا التشنّج والانفعال يبلغ من الشدة إلى حدّ عدم تمكن النبي من اختيار كلماته بل كانت تصدر من دون قصد على لسانه.

ويمكن ردّ هذا الكلام من جهة أنَّ القرآن المجيد يذكر ثلاث آيات فقط تذكر النبيّ بعدم الاستعجال في التلفّظ بآيات القرآن والوحي وتُطمئن النبيّ بأنّه لن ينسى أبداً أي كلمة من الوحي: «وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً» «لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ»(8) و«سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى»

وكما يلاحظ فإنّ أياً من هذه الآيات الثلاث لا تدلُّ على أنّ النبيّ لم يكن يمتلك قدرة التسلّط على اختيار كلماته، وأنّها كانت تخرج من فمه بشكل لا إراديّ، بل إنّ مفاد هذه الآيات يدلُّ على أنّ النبيّ كان يكرّر بسرعة ما يلقى إليه لئلّا ينساه فقط، ولذا فإنّ ما أفاده (نولدكه) وادّعاه من أنّ اضطراب النبي وانفعاله في أوائل الوحي كان كبيراً لدرجة عدم القدرة على اختيار الكلمات أمرٌ في غاية الضعف ولايمكن القبول به.

2- إنّ سور تلك المرحلة من الوحي تشبه الأقوال الغيبية للكهنة، ولم تكن بالسور الطوال أبداً بل كانت تحوي الجمل القصيرة التي طرأ عليها أسلوب السجع.

لقد شبّه (نولدكه) كلام القرآن في سور المرحلة الأولى المكية من حيث التسجيع والقصر والمقترن بالقسم بكهانة الملحدين المدّعين للغيب قبل نزول القرآن، وهذه المقايسة لا صحة لها على الإطلاق، بل لايمكن إغفال الاختلاف الموجود بين القرآن والكهانة، إذ إنّ الكهانة فيها التكلّف والكذب والأباطيل والأراجيف والكلام اللامأنوس على حين لا يوجد أي نقص أو عيب وأمثال هذه الأُمور في القرآن الكريم.

3- إنّ أغلب تلك السور قد ابتُدئت بالقسم وهو أمرٌ كان متعمّداً من الكهنة في كلماتهم، ولقد كان أسلوب القسم في بعضها قوياً وشديداً لدرجة لا يمكن الإحاطة به ومعرفته، بل لعل البناء كان على عدم معرفته، إذ نجد في هذه السور كثيراً من الأُمور والمضامين العجيبة والغريبة.

4- وجود صفات واضحة ومؤكدة عن يوم القيامة في هذه السور، فقد ذكرت نعم الجنة وعذاب النّار وعقابها بشكل جذّاب ومؤثّر وجدانياً، نعم ليست كافّة سور هذه المرحلة بنفس النمط من الحدّة والشدّة بل إنّ السور النازلة في أواخر هذه المرحلة اتّخذت شكلاً أكثر هدوءاً.

وبعد أن يبينَ (نولدكه) الخصائص الأربعة للطبقة الأولى من السور المكية يذعن بصعوبة إلى تعيين تأريخ دقيق لنزول السور المكية، فيقول: مع كلّ هذا يجب الإذعان بأنّ تعيين تأريخ دقيق لنزول السور الصعب جدّاً فمثلاً لا يوجد أيّ طريق يبعث على الاطمئنان بأنّ أوائل سورة العلق هي أقدم أقسام الوحي القرآني، إذ إنّ الرواية التي تذكر بأنّ سورة العلق هي أول سورة تنسب إلى عائشة زوجة النبيّ مع أنّها لم تكن قد ولدت بعد عند نزول الوحي، ومضافاً إلى ذلك فإنّ عائشة

لا تتمتّع بأيّ وجه بمقدار كاف من الوثاقة والاعتبار، والدليل الآخر على ذلك وجود بعض السور الأُخرى التي يعدّها البعض من أوائل السور القرآنية المنزلة.

وما يسجّل على كلامه هذا:
- إنّ هذه الرواية نقلت في كتب أهل السنّة أيضاً بطريق لا ينتهي إلى عائشة، فقد نقل الطبراني في المعجم الكبير بسند صحيح إلى أبي رجاء العطارديّ قوله: «كان أبو موسى الأشعري يقرئنا فيُجلسنا، حلقاً، عليه ثوبان أبيضان فإذا تلا هذه السورة "اقرأ بسم ربّك" قال هذه أول سورة أُنزلت على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

**ثالثا: دراسة رودول.**

قام رودول Rodwell في سنة 1876 ميلادية بترجمة القرآن في لندن وطبعه ونشره، وزعم أنَّ كلّ السور القرآنية فيه مرتبةٌ على أساس الترتيب الزمانيّ لنزولها، وقد سار في دراسته تلك على أسلوب (نولدكه) وطريقته، إلّا أنّه أبدى بعضاً من آرائه واجتهاداته الشخصية بالنسبة لترتيب السور المرتبطة بالطبقة الأولى من مرحلة الوحي المكيّ.

ويبدأ (رودول) كلامه بالقول بأنّ الآيات النازلة في مرحلة بداية الوحي لمّا كانت قصيرةً فلابدّ من وضعها في المكان المناسب لها في مختلف السور، ويمثل لذلك بقوله في مورد سورة (الملك): «إنّ الآيات الثامنة إلى الحادية عشرة نزلت متأخّرة عن سائر الآيات إلا أنّها أُدرجت في مكانها فيما بعد، حيث إنَّ كلّ واحدة من هذه الآيات أطول من باقي آيات السور نفسها».

وهنا نقول وبلا تردّد إنّ مجرّد النظر إلى المصحف العربيّ نفسه . وبلا حاجة إلى ترجمة وتنظيم (رودول) . يجعلنا ندرك أنّ الآيات (8-11) من سورة الملك تحتوي بالترتيب على هذا العدد من الكلمات (13، 9، 12، 5) مع أنّ سائر الآيات في السورة نفسها تحتوي على كلمات يتراوح بين 8 إلى 18 كلمة.

والأهمّ من ذلك أنّ هذه الآيات(8-18) التي ادّعي (رودول) إدراجها فيما بعد في هذه السورة لها ارتباطٌ كاملٌ بلحاظ السياق والموضوع مع الآيات السابقة واللاحقة، ولإثبات هذه الحقيقة يمكن ملاحظة الآية السادسة إلى الآية الثالثة عشر من السورة نفسها بالتدقيق حيث يقول تعالى:

)وَلِلَّذينَ كفَرُوا بِرَبِّهم عَذَابُ جَهَنَّمَ وبِئسَ المَصيرُ * ... إنَّ الَّذينَ يَخشَونَ رَبَّهم بِالغَيبِ لَهُم مَغفِرَةٌ وأَجرٌ كبيرٌ * وأَسِرّوا قَولَكم أو اجهَرُوا بِهِ إنَّهُ عَلِمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ( فإنّ هذه الطائفة من الآيات ترتبط ارتباطاً منطقياً ومعنوياً واضحاً بالآيات الأولى من السورة، إذ إنّه تعالى يذكر من الآية الأولى إلى الخامسة كلاماً عن العظمة والقدرة الالهية وأدلّة ذلك في عالم الخلق، ويذكر في الآيات مورد البعث أولئك الذين أنكروا هذه الأدلّة واختاروا طريق الكفر والشرك وأنّ الله سيعذّبهم كما عذّب الشياطين.

ومن ثمّ يبين سبب استحقاقهم للعذاب فيقول إنّه من جهة: جعل لكم السمع والعقل، ومن جهة أُخرى أرسل لكم الأنبياء بالدلائل الواضحة لتأمين سعادتكم ولكنّ الإنسان عندما تكون له أذن لايسمع بها، وعين لا يبصر بها، وعقل لايفكر به، فحتّى لو أرسل إليه جميع أنبياء الله والكتب السماوية فلن تؤثّر فيه.

ولمّا كان (رودول) قد اتّبع منهج (نولدكه) مستخدماً لمعاييره ومبانيه، فليس هناك أيُّ جديد جدير بالبحث في كلامه سوى بعض الآراء المتفرّقة هنا وهناك حول شخصية النبي محمّد، وكذلك حول اقتباس القرآن من العهدين والخ...، ولمّا كانت مثل هذه الموضوعات لا ارتباط لها بتأريخ القرآن، فإنّ التعرّض لها ها هنا موجب للخروج عن الموضوع.

**رابعا: دراسة ريجيه بلاشير.**

نظّمت السور في ترجمة (بلاشير) طبقاً لترتيبها التاريخيّ، ويختلف هذا الترتيب في بعض النواحي عن طريقة (نولدكه) ومنهجه، وقد تبنّى (بلاشير) ما قدّمه (نولدكه) من المراحل المكية الثلاثة للوحي، واختلف معه في بعض النواحي الآتية:

فقد جعل (بلاشير) سورتي الذاريات والقلم من السور النازلة في بداية المرحلة الثانية للوحي المكيّ، على حين عدّها (نولدكه) من سور نهاية المرحلة الأولى.

والاختلاف الثاني بينهما يرجع إلى أنّ بلاشير جعل سورة الإنسان من المرحلة الأولى للوحي المكيّ.

والاختلاف الثالث بينهما هو في سورة الإسراء فقد جعلها (بلاشير) من سور المرحلة الثالثة المكية إلا أنّ (نولدكه) ذكرها في ضمن سور المرحلة الثانية ويذكر (بلاشير) عند توجيهه

وبيانه لهذا الاختلاف في ترتيب السور في المرحلة الأولى المكية ما يأتي:
"لقد رجّحت جمع السور المتشابهة في موضوعاتها في طبقات مستقلّة، ومن ثمّ رتّبت هذه الطبقات بشكل متتال بناءً على الانسجام والتشابه فيما بينها وبالالتفات إلى سير رسالة النبيّ "

وهذا التقسيم الذوقيّ الذي لا أساس له، قد أوقع (بلاشير) في عدد من الإشكالات حول تقسيم بعض السور ووضعها في طبقات معينة ومن ثمَّ كيفية إرجاعها إلى المراحل التاريخية المختلفة.
ولذا فالمنشأ الأساس لخطئه في تأريخ القرآن أنّه لم يذكر أي توجيه تاريخيّ أو علميّ في تنظيم السور وتغيير أماكنها.

**خلاصة واستنتاج:**

1. إنّ المراد من (التأريخ) هو تعيين نزول الآيات والسور القرآنية. وتظهر ضرورة ذلك من خلال ملاحظة أنّ القرآن نزل تدريجاً وتبعاً للمقتضيات والظروف المحيطة.
2. لقد سعى العلماء المسلمون إلى البحث والتمحيص عن كل ما تضمّنته الروايات ليتمكنوا من خلال ذلك من ترتيب السور القرآنية طبقاً للتحولات الاجتماعية في عصر رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وقد راعوا في ذلك أدقّ التفاصيل. بينما اعتقد المستشرقون بأنّ من غير الممكن الاعتماد على الروايات، ومن ثمَّ شكّكوا في إمكانية الاعتماد على السيرة النبوية والروايات المعتبرة الناقلة للأحداث الخاصة والعامة في عصر النبي لترتيب الآيات والسور القرآنية.
3. إنّ المستشرقين ورغم اهتمامهم في بعض الموارد بالروايات والسنّة النبوية، ألا أنّهم لم يستفيدوا منها بشكل صحيح، وكذلك فإنّهم في موارد كثيرة أيضاً تعاملوا مع الاحتمالات والفرضيات الذهنية والعقلية في مجال تأريخ الآيات كحقائق قطعية ومسلّمة، ولذا نجد مضافاً إلى تنافي ما توصّلوا إليه مع المرويات الإسلامية ومع ما توصّل العلماء المسلمون، أنّ هناك تنافياً وتناقضاً بين دراسات المستشرقين أنفسهم، وهذا يعكس عقم ما اعتمدوه وبطلانه في سبيل تحديد ترتيب نزول السور.

4. إنّ من أهمّ الأخطاء التي وقع فيها (فايل) تتمثّل في اعتقاده بأنّ سور الطبقات اللاحقة كانت أطول من سابقاتها، مع أنّ ملاك قصر الآيات والسور وطولها يخضع لأمر شخصي، وبالتالي لا يمكن الاعتماد عليه لأجل الفصل بين مراحل الوحي المكي والمدنيّ. ولذا لاحظنا وجود موارد كثيرة تشكل نقضاً لمبانيه ونتائجه التي توصّل إليها، ولذا أمكننا وصف سعيه هذا بأنّه أقرب إلى الذوق والتحليل الشخصيّ منه إلى البحث العلميّ.

5. وأمّا (تيودور نولدكه) فقد أعلن أنّه . نظراً لعدم وجود قرائن وشواهد واضحة على مختلف الأحداث والوقائع . فلا بدّ لنا من أن نبحث عن طريق الرجوع إلى القرآن نفسه لمعرفة مراحل تطوّر شخصية النبي. ومن ثمّ ترتيب الآيات والسور على أساس ما نتوصّل إليه. ولكنّه غفل عن أنّ الإله الحكيم قد جعل شكل الآيات والسور ومضمونها تابعاً لحاجات عباده، ولا يرجع الأمر في ذلك إلى الحالات الروحية والنفسية المرتبطة بشخص النبي صلى الله عليه وسلم.

6. إنّ أهمّ إشكال يرد على ما توصّل إليه (رودول) هو اتّهامه النبي صلى الله عليه وسلم بالتبديل والخلط في الوحي إذ يقول: «لقد تعمّد النبي خلط الوحي المتقدّم للقرآن مع الوحي المتأخّر والجديد منه وذلك بغرض التخفيف من حدّة بعض العبارات المنزلة قديماً، ومن ثمّ إيجاد التعادل بينها»، إلا أنّه لم يذكر أي شاهد أو دليل على هذه الدعوي، ومن ثمّ اكتفي بهذا الأصل الخيالي القائل بأنّ الآيات النازلة في أوائل الوحي لما كانت قصيرة لابدّ من إدراجها في مكانها المناسب في مختلف السور القرآنية.

7. بشيء من التأمّل في دراسة (بلاشير) يمكننا ملاحظة التضادّ بين ما توصّل إليه وبين المسلّمات القطعية الكثيرة، ومثال ذلك يمكننا مشاهدة أنّ كثيراً من السور القرآنية تتلاءم مع المراحل الثلاثة وتنسجم من طبقاته المكية بلحاظ اللحن وأسلوب الكلام فلا يمكن الفصل بينها. وكذلك من حيث الموضوع والمحتوى فإنّا نري أنّه قد جعل السور التي تتعرض للقيامة والظواهر الكونية في المرحلة الأولى من الوحي، مع أنّنا نلحظ وجود موضوعات متعدّدة أخرى، تعرضت لها الآيات المنزلة في هذه المرحلة، وبشكل متكرر لايقل عما تعرضت لها الآيات المرتبطة بالقيامة والظواهر الكونية، ولكنه لم يأت على ذكرها أبداً. إذا المعيار المعتمد لديه غير جامع ولا مانع.

## عنوان المحاضرة: ترجمة القرآن عند المستشرقين.

**مقدمة:**

اتفق العلماء قديمًا على جواز ترجمة معاني القرآن الكريم؛ تحقيقًا لعالمية الإسلامية وشمول رسالته للناس كافة، وقد حكى الاتفاق على جواز ترجمة معاني القرآن الكريم غير واحد من أهل العلم؛ إذ يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة (ت 728هـ): «يجوز ترجمة القرآن في غير الصلاة والتعبير؛ كما يجوز تفسيره، باتفاق المسلمين»، ويعلق الدكتور محمد حسين الذهبي (ت 1398 هـ) على كلام شيخ الإسلام؛ بقوله: «وعلى هذا؛ فإن ترجمة هذا التفسير داخلة تحت هذا الاتفاق؛ لأن عبارة الترجمة التفسيرية محاذية لعبارة التفسير لا لعبارة الأصل القرآني، فإذا كان التفسير مشتملًا على معنى الأصل، وشرحُهُ مما يسهِّل فهم القرآن وتدبُّرَهُ، كانت الترجمة لهذا التفسير، أو المعنى مشتملة -أيضًا- على هذا كله؛ لأنها ترجمة للتفسير لا للقرآن، ولا شك أن كلًّا من التفسير وترجمته بيان جانب أو أكثر من جانب من جوانب القرآن الكريم، ولا يحيط بها إلا من أنزله بلسان عربي مبين -سبحانه وتعالى- وليس في واحد منهما إبدال لفظ مكان لفظ القرآن، ولا إحلال نظم مَحَلَّ نظمه، بل لفظ القرآن ونظمه باقيان على حالهما صورةً ومعنىً مِن غير خَللٍ ولا نقصانٍ».

**تراجم معاني القرآن في العالم الغربي:**

للقرآن الكريم قوة ذاتية مؤثرة في النفس والوجدان، تبهر العقول وتأسر القلوب، مما كان له بالغ الأثر على نفوس وعقول الأوربيين، فأبهرهم ببلاغته وأسلوبه البديع مما جعلهم يدخلون في الإسلام أفواجًا؛ وقد اعترف فلاسفتهم بهذا الأثر والتأثير للقرآن الكريم؛ حيث يقول الفيلسوف السويسري فريتجوف شيون: "الطابع الخارق لهذا الكتاب [يعني: القرآن الكريم] ليس فقط في محتواه العقدي، وحقيقته النفسانية والنسكية، وسحره الذي يُحوِّلُ ويُبدِّلُ، وإنما يظهر كذلك في فعاليته الخارجية وفي معجزة انتشاره".

وقد أزعج انتشارُ الإسلام في الغرب السياسيين ورجال دينهم -القساوسة والرهبان- وأضج مضاجعهم، فلجؤوا إلى محاولة صد الناس عن الدخول في الإسلام، واتخذوا ترجمة القرآن الكريم وتحريف معانيه وسيلة لتشويهه من داخله، والطعن فيه وفي رسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وانطلقت

أول المحاولات لترجمة معاني القرآن الكريم مِن **دير كلوني** في جنوب فرنسا؛ بوصفها رمزًا للتوبة والتكفير عن الغضب الإلهي الذي تمثَّل في انتشار الإسلام وتوسُّعِه في أوروبا[1].

### أولى الترجمات اللاتينية: ترجمة روبرت (1143 م:

تعتبر تلك الترجمة هي أولى ترجمات معاني القرآن الكريم في أوروبا، وقد ظهرت في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، وبالتحديد في عام (1143 م)، وكان ظهورها بعد الحملة الصليبية الثانية بأربع سنوات، وكانت بطلب من القديس بطرس الملقب بالموقر (ت 1175 م)، وهو أسقف دير كلوني الموجود في جنوب فرنسا.

وقد اختار لهذه المهمة ثلاثة من المترجمين: الأول إنجليزي ويدعى: (روبرت كيتيننسيس = Robert Ketenensis)، والثاني ألماني من دلماتيا ويسمى: (هرمان Herman of Dalmatia)، والثالث إسباني، وقد أنجزت هذه الترجمة بالاستعانة باثنين من العرب.

وضعت هذه الترجمة تحت تصرف رجال الكنيسة؛ ليستعملوها في استكمال دراساتهم اللاهوتية، أو القيام بأعمال التنصير، غير أن الدوائر الكنسية منعت من طبع هذه الترجمة وإخراجها إلى الوجود؛ خشية أن يساعد خروجها على انتشار الإسلام، بدلًا من أن يخدم الهدف الذي سعت إليه الكنيسة أصلًا، وهو مناهضة الإسلام.

ولذلك ظلت هذه الترجمة مخطوطة تُتداول في الأديرة قرابة الأربعة قرون، إلى أن قام (توماس ببلياندر Thomas Bibliander) = بطبعها في بال سنة (1543م).

**تقويم الترجمة من الناحية العلمية:**

- وصفت هذه الترجمة بأنها لا تستحق اسم ترجمة أصلًا؛ لكثرة ما فيها من أخطاء وحذف وإضافة، بل وتصرف في النص القرآني بحرية كبيرة مما يجعل من الصعب تمييز النص الأصلي.
- لا تشتمل هذه الترجمة على أي تشابه مع الأصل، ومع ذلك ظلت أصلًا يُعتمَدُ عليه لمدة طويلة، كما شَكَّلت النواةَ الأولى لسائر الترجمات الأوروبية فيما بعد.
- تتابعت الترجمات الاستشراقية مستنِدَةً إلى ترجمة (روبرت)، فصدرت أقدم ترجمة لمعاني القرآن الكريم إلى اللغة الإيطالية سنة (954هـ -1547م)، ثم صدرت عن الترجمة الإيطالية

ترجمةٌ ألمانية سنة (1025هـ-1616م)، على يد (سالومون شفايجر)، وعن الألمانية صدرت ترجمة إلى اللغة الهولندية سنة (1051هـ-1641م) ولا يعرف اسم مترجمها، وهكذا توالت الترجمات المعتمدة على ترجمة روبرت.

**أولى الترجمات الفرنسية: ترجمة دي ريار (1647م):**

في منتصف القرن السابع عشر الميلادي -عام (1647 م)- ظهرت أولى الترجمات الفرنسية لمعاني القرآن الكريم، والذي قام بها المستشرق الفرنسي أندريه دي ريار، والذي كان يعمل قنصلًا لملك فرنسا في مصر.

**تقويم الترجمة من الناحية العلمية:**

- ادَّعى صاحب الترجمة أنه نقلها من النصِّ العربيِّ، ولكن أظهر النقادُ عدم صحة هذه الدعوى، وأثبتوا خلافها وأن المترجم لم يكن له معرفة باللغة العربية أصلًا، ويظهر -جليًّا- للدارس لهذه الترجمة أنها نسخة فرنسية من الترجمة اللاتينية لترجمة (روبرت)
- تركت هذه الترجمة أثرًا سيئًا؛ إذ كان هدف المترجم تشويهَ الإسلام وعقائده، وصرف الناس عن الدخول فيه، وكانت كلماته تنمُّ عن الازدراء لهذا الدين والافتراء عليه، ووصف القرآن بأنه من عند محمد صلى الله عليه وسلم.
- رغم العيوب والأخطاء الكثيرة لهذه الترجمة إلا أنها تُرجمت إلى مختلف اللغات الأوروبية تقريبًا: حيث قام (الكسندر روس) في عام (1649م) بترجمتها إلى اللغة الإنجليزية، وقام (غلازماخر) بترجمتها إلى اللغة الهولندية في عام (1658م)، وقام (يستنكوف، وفريفكين) بترجمتها إلى اللغة الروسية، كما قام (لانج) بترجمتها إلى اللغة الألمانية في عام (1688م).

**ترجمة جورج سيل إلى الإنجليزية (1734م):**

في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي -عام (1734 م)- ظهرت ترجمة جديدة باللغة الإنجليزية لمعاني القرآن الكريم، وصاحبها هو المستشرق الإنجليزي جورج سيل، والذي كان من الأعضاء الأوائل في جمعية تعزيز المعرفة بالمسيحية، وضمن المدققين في الجزء الثاني من العهد الجديد باللغة العربية، الصادر عن جمعية تعزيز المعرفة المسيحية في عام (1726م(

**تقويم الترجمة:**

- تعد ترجمة (جورج سيل) لمعاني القرآن الكريم من أشهر أعماله، ولقلة بضاعته في العربية اتكأ على ترجمة (مراتشي) اللاتينية، وقد راجت رواجًا كبيرًا طوال القرن الثامن عشر، بل ظلت عمدةً للباحثين الغربيين مدة قرنين من الزمن، كما ترجمت إلى الهولندية والألمانية والفرنسية والروسية والسويدية والبلغارية.
- بالرغم مما تتضمنه تلك الترجمة من أخطاء ومغالطات وتحريفات إلا أنها طبعت أكثر من مائة وعشرين (120) طبعة.
- ومن جملة تحريفات جورج سِيل قوله: ''إن محمدًا صلى الله عليه وسلم كان في الحقيقة مؤلف القرآن والمخترع الرئيسي له''. اهـ. وهو بهذا يروج –كأسلافه من المستشرقين– لفرية أن القرآن الكريم من تأليف النبي محمد صلى الله عليه وسلم؛ { كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا} [الكهف: 5].

**سلبيات ترجمة سيل:**

- اختار سيل كلمة واحدة فقط عنوانًا لترجمته لمعاني القرآن الكريم، وهي ''القرآن''، والتي توهم بأن النسخة المترجمة هو القرآن بالإنجليزية تمامًا كما هو بالعربية.
- استخدم سيل أسلوب خداع القراء حيث دعا -دائمًا- إلى لإنصاف، وأثنى على القرآن الكريم، وترجم معانيه إلى اللغة الإنجليزية، لكنه نفى أن يكون وحيًا من عند الله، بل أكَّد على أنَّه مِن صنع النبي محمَّد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، حيث يقول: «أمَّا أنَّ محمَّدًا كان في الحقيقة مؤلِّف القرآنِ المخترعَ الرئيسيَّ له فأمرٌ لا يقبل الجدلَ، وإنْ كان المرجَّح -مع ذلك- أنَّ المعاونة التي حصل عليها من غيره في خطَّته هذه لم تكُن معاونةً يسيرة، وهذا واضح في أنَّ مواطنيه لم يتركوا الاعتراض عليه بذلك.«
- تحريفه المتعمد لمعاني القرآن الكريم، ومن أمثلته: تحريفه لعنصري الخطاب المباشر وغير المباشر، وتحريفه لكثير من الكلمات وتغييرها دون مبرر، وتحريفه للزمان والمكان، وتحريفه لترجمة الأفعال من العربية إلى الإنجليزية، وتحريفه للحركات الإعرابية في القرآن الكريم؛ كما في قوله تعالى: {وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا} [التوبة: 40]، فالحركة الإعرابية على {كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا} هي الفتحة، أما الحركة على {كَلِمَةُ اللَّهِ} الضمة، فترجمها سيل بهذه

الترجمة الخائنة :(And he made the word of those who believed not to be abased، and the word of God was exalted; for God is mighty and wise)

فقام المترجم بترجمة {كلمة الله} على أن «كلمةَ» مفتوح آخرها، في حين أن الترجمة يجب أن تكون هكذا :(And he made the word of those who believed not to be abased، but the word of God is always exalted; for God is mighty and wise)

والمقصود أن كلمة الكفار تصبح السفلى في حين أن كلمة الله كانت وما زالت، وستبقى هي العليا دائمًا.

- إضافته لكلمة (مكة) في مواضع كثيرة ورد فيها الخطاب للناس جميعًا بصيغة: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} [البقرة: ٢١]، وهو بهذا يطعن في عالمية الإسلام، وعموم رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، وأن الله تعالى أرسله إلى الناس كافة بشيرًا ونذيرًا.
- إيراده لشواهدَ ومقارناتٍ من الإنجيل والتوراة: في محاولة منه للتوفيق، أو لإظهار الفروق، أو لنفي أمرٍ أو تأكيده، أو للمقارنة بين روايتين عن حادثة واحدة والخروج برأي شخصي.

**ترجمة رودويل (1864م):**

في منتصف القرن التاسع عشر –عام (1864 م)– وبعد ترجمة جورج سيل بقرن من الزمان تقريبًا، ظهرت ترجمة جديدة لمعاني القرآن الكريم باللغة الإنجليزية، قام بها جون ميدوز رودويل، والذي كان يعمل قسيسًا لكنيسة St. Ethelberga في لندن، كما كان يعمل أستاذًا للدراسات الشرقية في جامعة كيمبردج.

**تقويم الترجمة من الناحية العلمية:**

- طبعت حوالي (18) طبعة منذ عام (1909م) عندما تبنتها دار نشرEveryman ، بتحقيق القس (مارجليوث G. Margoliouth) والذي كتب لها مقدمة.

- ولعل السر في إقبال المستشرقين على ترجمة (رودويل) يرجع إلى بدعة أحدثها في المنهج القرآني المألوف، حيث رتب السور ترتيبًا زمنيًّا حسب نزولها، فبدأ بسورة (العلق) ، واختتم بسورة (المائدة.(
- زعم المترجم -زورًا وبهتانًا- أن السور التي بدأ بها -وهي: (سورة الزلزلة، والانفطار، والتكوير، والإنسان، والرحمن، والعاديات)، وغيرها- مشابهة في مضمونها للتوراة والإنجيل؛ لذلك فقد أحال القارئ في (سورة الرحمن) لمقارنتها مع المزمور رقم (136) من التوراة.
- زعمه الباطل – في كثير من الحواشي – أن النبي صلى الله عليه وسلم قام بتعديل السور والآيات من حين لآخر.

وهذه الأمثلة على ما في تلك الترجمة من تحريفات :

- في قوله تعالى: {سبع سموات} [البقرة: 29]. يقول المترجم: إن عدد السموات السبع مأخوذ عن التلمود، أو من التراث المأخوذ عن التلمود، ولكن الفكرة الأساسية ربما يوجد لها جذور في تعبير الكتاب المقدس: السموات السبع.
- في تعليقه على قصة آدم وإبليس في (سورة البقرة) يقول: إن أجزاء من القصة أُخذت عن كتب النصارى والتلمود. ويقارن النص القرآني بنص توراتي؛ ليؤكد أن القرآن قد تلقَّاه محمد الأميُّ صلى الله عليه وسلم من الله العليم الحكيم، وتعامى المترجم عن نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وأن الله تعالى يوحي إليه بما شاء، ويعلمه ما شاء؛ يقول تعالى: {تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا}، وأميته صلى الله عليه وسلم من أقوى الأدلة على ذلك.

**ترجمة آرثر آربري 1964 م:**

في عام (1964م) صدرت ترجمة المستشرق آرثر جون آربري، بعنوان ''القرآن مفسرًا''، وقد تميزت تلك الترجمة عما سبقها بأسلوبها المعاصر الواضح، وسهولة لفظها، وحرص صاحبها على الالتزام بترجمة كلِّ لفظ ورد في القرآن الكريم من دون نقص، أو زيادة؛ فضلًا عن خلوها من أيِّ نوع من أنواع التهجم، أو محاولة التشويه لجمال القرآن الكريم، أو الطعن في الإسلام، أو التقليل والازدراء من شأن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، كما هو العادة المضطردة في ترجمات أكثر المستشرقين.

**أهم مميزات وخصائص تلك الترجمة:**

- لم يكتفِ (آربري) بترجمة القرآن الكريم، بل أعطى رأيه فيه، وقارع المستشرقين الآخرين؛ مؤكدًا على تناسق آياته في المعاني والدلالات، كما أشاد بالقدرة الإلهية التي أنزلت الوحي على النبي محمد صلى الله عليه وسلم.
- دافع (آربري) بقوة عن فصاحة القرآن، وجماله، وإعجازه، وبلاغته، واعترف «بأن القرآن الكريم وحي من قوة خارقة، وأن الرسول محمد تلقاه وحيًا»، مفنِّدًا بذلك مزاعمَ المستشرقين المغرضين، ومن أجل تقريب صورة القرآن الكريم إلى أذهان الغربيين قام بنشر آيات مختارة من القرآن الكريم تحت عنوان: «القرآن المقدس.«
- رَدَّ (آربري) على دعوات بعض الغربيين الذين يروجون إلى عدم ترابط آيات القرآن الكريم، بقوله: «إن الآيات في كل سورة مترابطة في خيوط من الإيقاع المرن، ووحي واحد متوافق داخليًّا إلى أعلى درجات التوافق»، كما أقرَّ بتأثير القرآن النفسي على الإنسان، وأن تأثيره تأثير إيجابي.
- التزم المترجم بالنص الأصل وحاول أن يخرج بترجمة متميزة، ولكنه أقرَّ في آخِرِ سطرين من تقديمه لترجمته أنها: صدى باهت للأصل العظيم ليس إلَّا (poor echo though it is of the glorious original). وهذا اعتراف يجب أن نسجله لآربري بحروف ناصعة.
- كتب آربري في مقدمة ترجمته لمعاني القرآن الكريم: «أحمد تلك القدرة الإلهية التي أنزلت الوحي على ذلك النبي محمد صلى الله عليه وسلم الذي كان أول من تلا آيات القرآن الكريم»، كما أوضح «أن القرآن الذي نقرأه اليوم هو نفسه الذي جُمع في عهد الخليفة عثمان بن عفان –رضي الله عنه– وأنه لم يحرَّفْ أو يبدَّل»، ويعد هذا –بحد ذاته– ردٌّ مفحم على جمهرة المستشرقين المتعصبين.

**سلبيات الترجمة من الناحية العلمية:**

يمكن إجمال بعض سلبيات ترجمة آربري فيما يأتي:

1– أن المترجم اختار صيغة النظم الشعري لتصميم الشكل العام لنص ترجمته، واختار تقسيم الآيات في مجموعات وأنماط نسقية لا تعتمد رقم الآية، وزعم أنه ابتدع جانبًا جديدًا في ترجمة القرآن لم يأتِ به مَن سبقه مِن المترجمين في أي لغة من اللغات.

2- اعتمد المترجم الجانب الإيقاعي الصوتي للآيات، وهذا يُعَدُّ إحدى سقطاته، وتمثل خللًا في فهمه؛ إذ اعتقد -خاطئًا- قدرته على محاكاة الإيقاع الصوتي القرآني.

3- لا تخلو الترجمة من بعض الأخطاء العقدية، ومنها: أنه ترجم معنى «استوى» في الآية الكريمة: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ} [البقرة: 29] بما صار معناه: «ثم رفع نفسه إلى السماءThen He lifted Himself to Heaven :«، والصحيح أن معناها في هذه الآية: قصد وعمد؛ يقول الحافظ ابن كثير (ت 774 هـ): ''أي: قصد إلى السماء، والاستواء ها هنا تضمن معنى القصد والإقبال؛ لأنه عدي بإلى.

**الخلاصة** : تعد ترجمة (آربري) أقل الترجمات الاستشراقية ضررا والتي يمكن الاستفادة منها في مجال الدعوة، كما ينصح بتشكيل لجنة من المتخصصين لمراجعتها، والاستفادة منها بعد التعديل والإصلاح.

**السِّمات العامة لترجمات المستشرقين**

من خلال العرض السابق يمكننا الوقوف على أهم السمات لترجمات المستشرقين لمعاني القرآن الكريم؛ ليكون المسلمون على بينةٍ من أمرها:

- عدم التعمق والالتزام بالمعاني المعجمية للألفاظ القرآنية، واحتواء بعضها على مغالطات كثيرة وخطيرة، باستثناء بعضها كترجمة آربري.
- استعمال الترجمة باعتبار المعاني المفردة، دون النظر إلى المعنى التركيبي للآيات، ولا سياقها، وتعمد تشويه المعنى، وقلب الحقائق.
- عدم الاعتناء ببيان ما في الآيات من معانٍ بديعة ومجازية؛ مما أفقد الترجمات عنصر الجذب والتأثير على القارئ.
- عدم الاعتناء بأسباب النزول، ولا بعدِّ الآيات؛ فقد تُدمج آيات، أو تقطع الآي، وكذلك ابتدع بعض المستشرقين طرقًا خاصة بهم في ترتيب السور، فرتبها بعضهم حسب تاريخ النزول، ورتبها بعضهم حسب الإيقاع الموسيقي -على حد تعبيره.-
- عدم التعرض لبعض الأدوات الضرورية التي تساعد على فهم الآيات القرآنية؛ كالنصوص الحديثية مثلًا.

- ظهور أثر ديانة المترجم ومستواه المعرفي والثقافي والحضاري على الترجمة؛ مما يجعلها تتصف بعدم الإنصاف أو الحيادية، ويظهر هذا واضحًا في إخفاء -معظمها- أو التلاعب بالآيات التي تدين عقيدة الثالوث، أو تأليه السيد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام.